

لقمان الدويبات

قال ارسطوطاليس « يرى على نهر هيبانيس ^(١) (Hypanis) دويبات لا تعيش الا يوماً واحداً ^(٢) ، فالتى تقضى نحبها في الساعة الثامنة من الصباح تُختصر ، والتي تطوي بساط ايامها في الساعة الخامسة من المساء ، تموت هرماً . »

وقف أحد كتاب الافرنج على هذا القول الذي نقله شيشرون ، فكتب فصلاً يتدفق زلاله حكمة راتمة ، بخاريتاه فيه فوضعنا هذه الاسطر التالية :

لفرض ان ذكرًا من ذكور هذه الدويبات الهيبانية عمرٌ نهاراً واحداً لمتانة بنيتها ، واندماج خلقه ، وتوثيق آرايه ، أي انه ولد مع انبثاق الفجر ؛ ثم قضى عمره عاملاً بنشاطٍ وهمةٍ وكدٍ وجدٍ ، مدة الثواني العديدة

(١) كان يطلق اسم نهر هيبانيس في السابق على نهرين في اوربة البربرية : أحدهما يُعرف اليوم باسم « كوبان » ويخرج من كوه قاف ، ويدفع مياهه في بحر ازوف ؛ والآخر يُعرف باسم « بوغ » ويأتي من ديار ياجوج وماجوج الاوربية (اسكثية الاوربية) ويصب في أولبية في فوهة نهر البورستين

(٢) الكلام هنا عن هذه الدويبات المسماة « يينات اليوم » وهي طويترات لا تعيش الا يوماً واحداً ، ومن ذلك اسمها العربي الذي وضعناه . وهي تُعرف في ديار العراق باسماء شتى كالجيلو او الاكليلية ، والخيتور ، والزُخرف ، والبعضوة ونحوها . واسمها بالفرنسوية : (Éphémère) ، وبلسان العلم (Ephemera) وتوجد في جميع الاصقاع التي تكثر فيها الغدران والبطائح والمستنقعات

التي تنشأ منها الساعات العشر او الاثنتا عشرة وهي مدة عمره الطويل
 ما عاش هذه الساعات الطوال الأ وقد حنكته التجارب ، وعجم عود
 الزمان ، وغمز قناته ، فقام بين اخوته واخواته خطيباً مصقماً ، ذرب
 اللسان ، بليل الريق ، جزل الخطاب ، قوي العارضة ، تخلب أقواله كل
 سامع . كيف لا يكون كذلك وقد ركب من الأمور اكتافها ، واقتعد
 ظهور المكاره ، وحلب الدهر اشطره ، فأصبح طويل الفكرة ، دائم
 التدبر ، ولذا لا تعجب اذا قلت لك انه غدا لقمان أوانه ، وسحبان زمانه ،
 وسليمان عصره ، وفس دهره .

أجل انه لكذلك لاسيما وقد رأى أنداده ولداته ، قد اخترمتهم
 المنية عند الظهر ، كأنهم خلائق نجت نجات سعيدة من مساوي
 الشيخوخة ، التي كانت تحل بهم لو كانوا بلغوا مداها . ولهذا يحق لهذا
 الشيخ الجليل ، لقمان هذه الدويبات ان يقص على احفاده الاخبار
 المتواترة التي تروي أموراً كلها عجائب وغرائب لم تدر في خلد أصحاب
 التواريخ المدونة

وعليه ، جمعهم ذات يوم ، وهم كلهم أقوام من جنسه ، في مستقبل
 الشباب ، وغض الأهاب ، عمرهم ساعة . ثم قال لهم : هلم ايها الشبان
 اسمعوا وعوا . . . وما قال هذه الكلمات الا ورأيتهم جميعهم اذانا صاغية ،
 وقلوباً واعية . ثم أخذ يتكلم وهو يتحدّر تحدّر السيل ، ويتدفق تدفق
 اليعسوب ، كأن الله فجر بناييع الحكمة على لسانه ، وأراه الغيب من
 وراء ستر رقيق شفاف . اما الجلّاس فكانوا يطربون بفرر تلك الأقوال ،

ويثملون بارتشاف سلاف الحكيم التي تزرى بالدرر الغوال . وكل ما كان
يرويه عليهم كانوا يقضون منه العجب العجائب ، ويطيبون له نفساً ،
ويودّون ان يسموه مدى الأحقاب

على ان سماعهم اياه الى المساء ليس بقليل ؛ فهو عندهم بمنزلة اعوام ،
بل قرون . إذ الغروب عندهم من قبيل عصر من أعظم عصور الخلق
اذا بلغوه

ولنفرض الآن ، ان هذه الدويبة الذكر — لقمان ذاك الاوان على
نهر هيبانيس — أزمع على الرحيل ومغادرة هذه الدنيا الدنية ، لأنه
أحسن بدنو أجله لميل شمس النهار الى المغرب . فجمع جميع أولاده وأحفاده
من صلبه ولصيف اصدقائه ومعارفه ليودّعهم وداع الفراق ، ويوصيهم
وصاياها الاخيرة . فاحتشد جميعهم تحت ظل فُطْرَة ظليل . فأخذ الشيخ
الجليل المحتضر يقول :

« يا اصدقائي ووطنائي ، اني أشعر بأن لا بدّ من نهاية هذه الحياة ،
لأنه كان لها بداءة . ولقد حان أجلي ، وقربت ساعة وفاتي ، ولست
متأسفاً على زوال أيامي ، وتصرّم حبل حياتي . فلقد أصبح طول عمري
عبئاً ثقيلاً على كاهلي ، ولم يبق لي في هذه الدنيا ما يُطيب لي فيها مرارة
سُور رمقي . هذه الفتن والحزن وضروب النكبات أتلفت ديارني ، وكثرة
البلايا والرزايا أمالت قناتي ، وتتالي الأمراض والادواء التي تحلّ بقومنا
استفرغت قواي ، وتعاقب المصائب والنوائب التي ألمت بأهل بيتي استنفد
الدماء الباقي من حياتي . كل هذا ، اذا ضمّ الى ما رأيته واختبرته بنفسي

في حياتي هذه الطويلة ، تتحققون ان الزمان علمني هذه الحقيقة الثابتة
الاركان وهي : ليس من سعادة قارّة دائمة على هذه الارض ، ولا سيما اذا
كانت تلك السعادة منوطة بأمور ليست بأيدينا ولا بإرادتنا ، بل بمشيئة
عناية غامضة . فلقد رأيت طائفة من أقوامنا ماتوا عند هبوب ريح
صرصر ؛ وشاهدت جماعة من شببتنا المتهورّة قد غرقت في طحمة
سيل جارف ؛ وكنت يوماً ممن حضر فرأى مطراً مداراً أحدث طوفاناً
عمرماً اكتسح زرافات زرافات من ابناء وطننا العزيز ؛ ولقد تحطمت
ديارنا ذات يوم كل محطّم بعد ان سقط برّد هائل القدر أمات ربوات
وربوات من اخوتنا المظلومين . وزيدوا على ذلك ان قوماً منا اذا رأوا
سحابة سوداء قالوا في أنفسهم : ان هذه الا سحابة قوم عاد

« اني لقد عشت في عصور الخلق الأولى ، في زمان الفطحل ،
وحادثت جماعة عظيمة من الدويبات كن أطول مني قامة ؛ بل كنت
بجانهن كأحد بني ياجوج وماجوج ، بجانب واحد من بني عوج كن
ذوات بنية أقوى من بنيتي ، وذوات حكمة تزي بحكمة سليمان . ولهذا
اعلموا ، يا سادتي ، ان كل ما أنطق وأتفوه به ، لا يشوبه ريب ، ولا
يخامره شك . وليس في نيتي ان اخدع واحداً منكم

« يا قومي ، صدقوا كل ما أقوله لكم ، وتأكدوا ان الشمس التي
ترونها الآن متسترة وراء المياه ، ويخيل الينائها غير بعيدة عن الأرض ،
رأيتها سابقاً قد تكبّدت السماء ، قاذفة سهام أشعتها مصوّبة اياها علينا ؛
وكانت الارض في ذلك العهد المهيد سابحة في سبحات وجه الله ، أكثر

مما هي عليه في هذه العصور المتأخرة ؛ وكان الهواء أجف من هذا السكك ، وأحر منه ؛ وكان اجدادنا الفضلاء أصحاب جدٍ وكَدٍّ وجلد وقناعة سامية

« يا قومي ، ان حواسي وان كان قد فلَّ غربها ، وكلت شبة ذاكرتي ، إلا اني اؤكد لكم ان هذا النجم المتلألئ المجيد ، يتحرك ويسير . ولقد رأيت بزوغه الأول من وراء قمة هذا الطود الباذخ ، ونشأت في الوقت الذي أخذ يرتفع رويداً رويداً على الأفق ، ويخطو بعد ذلك في السماء خطوات جبَّارٍ عنيد من أعظم الجبابرة قوةً وحولاً وطولاً وهولاً . ولقد تقدّم في السماء تقدُّماً حثيثاً عجيباً مدة أعصار متطاولة متتالية ، وهو يقذف حرارةً غريبة ، وأنواراً عجيبة ، لا يمكنكم أبداً ان تتصوروها ، ان لم تروها بعيونكم ؛ بل ما كان يمكنكم ان تحتملوا أمره الأمرين

« اما الآن ، وقد قارب الأفول ، وان يوارى في قبور المياه ، أرى ان أفراد هذه الامة كلها سائرة ، بل صائرة الى الزوال والاضمحلال الوشيك ، وتسجى هذه الدنيا الغرور بأكفان الظلمات ، في أقل من مائة من الدقائق

« واحرّباه يا أصدقائي ، واحرّباه ، ما أعظم ما كان غروري في سابق العهد ، في عنفوان شبابي ، وغضاضة اهابي ، كنت إخالني من الخالدين المقيمين في هذه الارض ، وان ليس من شيء في هذه الدنيا يستطيع ان يتغلب عليّ ، ويُفني جواهر بدني ، وعناصره المتركب منها ، وكنت اذا نظرت الى مساكني التي كنت قد نحتتها في الصلصال

العالمك ، كنت أقول : وهل يموت من يقيم في مثل هذه الباني المحكمة
البنيان ، التي لم يشيد مثلها سليمان ، ولا الانس ولا الجان ؛ فما أشد
ما كانت ثقتي بنفسي ، وطمعي بهذه الحياة ، وبقوة أعضائي ، وبتركيب
مفاصلي ومواصلي ، وقوة أجنحتي !! كل ذلك أصبح كأن لم يكن ، لقد
عشت للطبيعة وللمجد ، لقد عشت لنفسي ولمنفعتي . لقد عشت ولم
استفد فائدة تذكر لآخرتي ، لقد عشت في دار الفرار ولم اتخذ عملاً فيه
الثواب لدار القرار . ولقد أحسن من قال :

يا صاحبي ان الزمان	كما علمت وما علمته
يفني الذي جمعه	بيدي ويحصده ما زرعه
ويخون من صافيه	عمداً ويعشق من مقتته
وجهلته فحمدته	وذمته لنا عرفته
ولطالما عابته	حتى على رغم تركته
بغداد	سانسنا

﴿ المودّة ﴾

المودة بين الأخيار سريع اتصالها ، بطيء انقطاعها . ومثل ذلك كمثل كوب
الذهب ، هو بطيء الانكسار ، هيّن الاصلاح . والمودّة بين الاشرار سريع
انقطاعها ، بطيء اتصالها ، كالكوز من الفخار يكسره أدنى عبث ، ثم لا وصل له
ابداً . والكريم يمنح مودته عن لقيه واحدة ، او معرفة يوم ؛ واللئيم لا يصل احداً
الا عن رغبة او رهبة (ابن المقفع)